20060826

السبت ٢٦ آب ٢٠٠٦

اعداد : ماري حدشيتي

العبرة من افواه الدجاج ...!

اتذكر اليوم صوره في كتاب تاريخ قديم، وقد كتب تحتها «شبح الموت يخيم على لبنان» هي رسمة تعكس صورة لبنان في ظل الحرب العالمية الاولى، وما شهده من موت ودمار. هي جملة قد يتذكرها الكثيرون من ابناء جيلي. لما نعتقد يوما ان الصورة ستتحول الى واقع، ان الجملة ستصبح احساسا ملموسا، اعتقدناها جملة في كتاب التاريخ وها هي اليوم اصبحت حاضرنا.

«باستطاعتها ان توقظ الكوابيس الراكدة في نفوس شعب اسرائيل، شعب لم يطب جلده بعد من حرق لبنان، نحن نتذكر ما فعلته الحرب في لبنان لنا، وما فعلناه نحن».

هكذا وصف كاتب يهودي الحرب الاسرائيلية الماضية على لبنان في مقالة له في صحيفة هآرتس. كوابيس وحروق، كلمتان تكفيان لوصف حال شعب اسرائيل. كوابيس تعكس ذكرى اليمة لحرب، رغم مضي الزمن عليها، ما برحت تقض المضاجع. واما الحروق، فهي الم اسرائيل الماضي والحاضر والمستقبل. هو الم «سيزيف» يحتضر تحت وطأة الصخرة، لا ينفك يحاول الوصول الى القمة عبثا، ليجد نفسه يقع من جديد. فها هوالسقوط يتبلور مع النابوليونات الثلاثة. هم يخضون حرب اليوم متناسين ما مضى، هاربين من تاريخ اتى ليفرض نفسه على شعب لم ينس.

اما نحن، فقد حفظنا رائحة الحروب عن ظهر قلب. حفظنا «الهستيريا الصهيواميركية» حتى اصبحت نشيدا كرره اجدادها واهلنا وكررناه نحن من بعدهم. تعددت الشهور والسنوات والموت واحد. لقد متنا في اجتياح ٨٢ وحرب ٩٣، ومتنا من جديد تحت عناقيد الغضب في ٩٦، وها بنا اليوم نذبح من جديد تحت شمس تموز وعلى مرأى العالم كله. وها بنا نصمد ونقاوم، وها هي صواريخنا تفهم دموعا على مستعمرات العدو، على افيفيم ومارغليوت. واذ بالعالم كله يسكت وبالدجاج يرتعب. فعلى حد تعبير الكاتب عينه، «الدجاج الاسرائيلي مصاب بحالة هلع جراء دوي الانفجارات، وقد تمثلت حالة الرعب هذه بانخفاض ملحوظ لعدد البيض !..».

الدجاج قد فهم والعالم لما يفهم بعد. رأوا فينا ارضا خصبة وما رضينا ان نخيب ظنهم. فنحن فعلا ارض خصبة كلما حرقت اعطت من جديد، كلما اغتصبت ولدت من جديد، كلما ماتت عاشت من جديد.

لقد اعتدنا بناء الجسور والابراج، واعتدنا لملمة اشلائنا والمضي من جديد. لقد اعتدنا المقاومة، فباتت هي اسمنا واصلنا ومضجعنا الاخير. لقد اعتادت سماؤنا رائحة الغبار والحريق، واعتاد بحرنا تلوث الحروب وقرفها، واعتادت ارضنا طعم الرماد والدم.

اتى عدونا اليوم ليراهن على صمودنا، مصارعا الزمن ومن سبقه من جلادين، مؤمنا بأن الموت سيحد من عزيمتنا. لهذا العدو نقول ان علمنا قد حفظ دماء الشهداء، وتماثيلنا ما هي الا تماثيل شهداء، وساحاتنا وحدائقنا وشوارعنا كلها حملت اسماء الشهداء. فما بالك ايها الغبي تلوح بسيفك ومتاريسك مهددا. اما قرأت خرائطك؟ اما استطاعت طائراتك ان تصور الحقيقة؟ اما فلح عملاؤك ان يزفوا عليك البشرى السارة بأننا وطن مجبول بالشهادة؟

ولكن لك الحق ان تعيد النظر وتتناسى التاريخ. ففي زمن تحسست فيه الامم لسفك الدم وقرعت الطبول، في زمن ثبت فيه الديموقراطية حروب الابادة، في زمن انتحرت فيه العروبة، في زمن اقتبس كلام وزرائنا ورجالنا للدفاع عن الهمجية الصهيونية، في زمن صور والرميلة ومروحين والصمت العالمي المشرف، من البديهي لك ان تراجع حساباتك. اننا في زمن الصمت والانهزام، زمن اصبحت فيه المجازر آلام مخاض لا اكثر، زمن قام فيه لبنان وجلس العرب، زمن صمت فيه العالم وارتعب الدجاج، فبات الدجاج ادرى من البشر.

سارة مراد